

تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿٤﴾ أي ليس أحد من الناس يعرف أين مضجعه من الأرض: أفي بحر أم بر، أو سهل أو جبل؟ وقد جاء في الحديث «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة».

تفسير سُورَةِ السَّجْدَةِ

روى البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الْعَرَّ﴾ ﴿١﴾ تَزِيلٌ ﴿[السجدة: 1، 2] السجدة، وَهَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴿[الإنسان: 1] ورواه مسلم أيضاً. وروى الإمام أحمد عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الْعَرَّ﴾ ﴿١﴾ تَزِيلٌ ﴿السجدة، وَتَبَارَكَ الَّذِي لَعَنَ مُلْكُ﴾ ﴿[الزخرف: 85]. تفرد به أحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَرَّ﴾ ﴿١﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

﴿تَزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾

﴿تَزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَا بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِشِدْرَ قَوْمًا مَّا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ

يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٣﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَا﴾ بل يقولون افتراه، أي اختلقه من تلقاء نفسه ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِشِدْرَ قَوْمًا مَّا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي يتبعون الحق.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ

دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أنه خالق للأشياء، فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير، أو شريك، أو وزير، أو نديد، أو عديل، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٥)

﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي ينزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابقة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢) [الطلاق: 12] وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا. ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

﴿ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٦)

﴿ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها، هو العزيز الذي قد عز كل شيء، فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، الرحيم بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته، وهذا هو الكمال، العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ (٧)

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها. ثم لما ذكر تعالى خلق السماوات والأرض شرع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٨)

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل، وترائب المرأة.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِيٍّ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ فَلَيْلًا مَّا

تَشْكُرُونَ﴾ (٩)

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِيٍّ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ يعني العقول ﴿فَلَيْلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عز وجل.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (١٠)

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا ﴿إِنَّا لَفِي ضَلَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أننا لنعود بعد تلك

الحال؟ يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم معادكم، وقيامكم من قبوركم لجزانكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله عز وجل حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم، أي من الحياء والخجل يقولون ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي نحن الآن نسمع قولك، ونطيع أمرك كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مریم: 38] وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10] وهكذا هؤلاء يقولون ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ أي إلى دار الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي قد أيقنا، وتحققنا فيها أن وعدك حق، ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله، ويخالفون رسله كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُؤْمِنُونَ عَلَىٰ النَّارِ قَالُوا يَلَيْتْنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27، 28].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٣﴾

وقال ههنا ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99] ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي من الصنفين، فدارهم النار لا محيد لهم عنها، ولا محيص لهم منها. نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك.

﴿ذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

﴿ذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له، إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي سنعاملكم معاملة الناسي، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً، ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَسْنَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجنانية: 34] وقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب كفركم وتكذيبكم.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي إنما يصدق بها ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي استمعوا لها، وأطاعوها قولاً وفعلاً ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غانر: 60].

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعني بذلك قيام الليل، وترك النوم، والاضطجاع على الفرش الوطيئة ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً من وبال عقابه، وطمعاً في جزيل ثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد. لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً، فإن الجزاء من جنس العمل.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾

أي عند الله يوم القيامة.

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها، وهي الصالحات ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أي التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافة وكرامة ﴿يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة تتمعهم. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتنا وما يحل بأهلها مما يتلى الله به عباده ليتوبوا إليه، أو العذاب الأدنى السنون المجذبة، أو هو القتل والسبي يوم بدر.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها. ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ أي سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب، وهو التوراة، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء، روى ابن أبي حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أريت ليلة أسري به موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار والدجال» في آيات أراهن الله إياه. ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ عن ابن عباس، جعل موسى هدى لبني إسرائيل. أو جعلنا الكتاب الذي آتينا إياه هدى لبني إسرائيل.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك زواجه، وتصديق رسله واتباعهم فيما جازوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً، ولا اعتقاداً صحيحاً، ولهذا قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ [الجن: 16] أي لما صبروا عن الدنيا. ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامي عن الدنيا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٥)

﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي من الاعتقادات والأعمال.

﴿أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٦)

يقول تعالى: ﴿أَوْلَمْ﴾ يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل فلم يبق منهم بقية ولا عين ولا أثر ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ يَوْمَ يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِ أَوْ تَسْعَ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مریم: 98] ولهذا قال ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين، فلا يرون فيها أحدا ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها ﴿كَأَن لَّمْ يَتَنَوَّأ فِيهَا﴾ [الاعراف: 92] كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: 52] ولهذا قال ههنا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم لآيات وعبراً ومواعظ، ودلائل متناظرة ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي أخبار من تقدم كيف كان أمرهم.

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ

أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧)

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ بين تعالى لطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء، إما من السماء أو من السبح، وهو ما تحمله الأنهار، ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: 8] أي يبسا لا تنبت شيئا.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨)

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا، ويتنقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما تراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين.

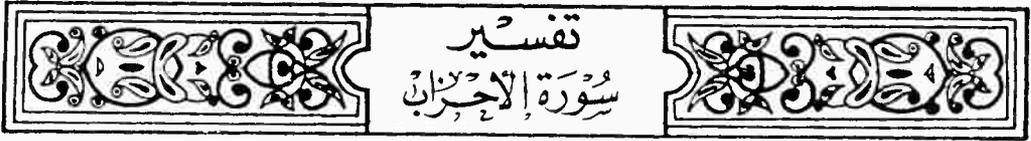
﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٢٩)

قال تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا والأخرى ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [غانر: 83، 85] ومن زعم أن المراد من هذا الفتح

فتح مكة فقد أبعد النجعة، وأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٢٩) وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل، كقوله: ﴿فَأَفْتَحَ بَنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ [الشعراء: 118].

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَأَنْظَرَ إِيَّاهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ (٣٠)

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَأَنْظَرَ إِيَّاهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ (٣٠) أي أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الانعام: 106] ﴿وَأَنْظَرَ﴾ فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد. وقوله: ﴿إِيَّاهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي أنت منتظر وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَدْيَسُّ بِهِنَّ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾ (٣١) [الطور: 30] وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم، وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك وسيجدون غيب ما ينتظرونه فيك، وفي أصحابك من ويبل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتِّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١).

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن ياتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى، وقد قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله. ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي فهو أحق أن تتبع أوامره، وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٢)

ولهذا قال ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي من قرآن وسنة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي فلا تخشى عليه خافية.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٣)